مرام مصاروة (*)

كتاب إسرائيلي جديد عن الكارثة والنكبة: لماذا الخوف من كشف الحقيقة عما حدث في العام ١٩٤٨؟

اسم الكتاب: «الكارثة، الولادة من جديد والنكبة»

المؤلف: يائير أورون

إصدار: منشورات «ريسلينغ»، ٢٠١٣

يصدر قريباً بترجمة عربية عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار

كرّس المجتمع الإسرائيلي، خلال أكثر من ستين عامًا، مجهودًا كبيرًا في بناء روح جماعية حول الكارثة التي ألّمت بالشعب اليهودي، وعمل على ربطها بمسألة إعادة بناء الأمة والدولة. كان لهذا المجهود عميق الأثر على بلورة وتصميم الفكر الجماعي الإسرائيلي، بيد أنّ «الأساطير» التي تطورت خلال تلك الفترة احتوت على ثغرات وتساؤلات لم تلق إجابات دامغة. فدولة إسرائيل لم تمكِّن مواطنيها من معرفة «الحقيقة» ومن سماع روايات تاريخية أخرى غير الرواية الصهيونية المتداولة، بل وعملت على تشويه الحقائق والحد من الانكشاف على الرواية الأخرى، وأقصد بذلك الرواية الفلسطينية.

كتاب الباحث يائير أورون، الذي صدر العام ٢٠١٣ عن دار «ريسلينغ» للنشر في تل أبيب، يتناول العلاقة بين الكارثة والنكبة وبناء الأمة ودولة إسرائيل. يقع الكتاب في ٣٧٤ صفحة ويحتوي على أحد عشر فصلا؛ يحاول أورون من خلالها فهم العلاقة والديالكتيك بين اصطلاحات: «الكارثة» و«الولادة من جديد» و«النكبة»، وذلك من خلال فحص العلاقات المركبة لهذه الاصطلاحات وتأثيراتها. يستهل الكتاب بعرض للروايات

(*) أستاذة في كلية القاسمي الجامعية– باقة الغربية

التاريخية الإسرائيلية والفلسطينية من خلال سرد لوقائع حدثت في النكبة، أو كما يسميها الإسرائيليون «حرب الاستقلال».

يتجوهر أورون، في أحد فصول كتابه، في مسألة دحض الادعاء الذي يعتبر النكبة عملية إبادة جماعية. فبالرغم من أن قلة من المؤرخين الإسرائيليين، التي عرفت نفسها على أنها «بوست صهيونية»، بالإضافة إلى الغالبية العظمى من المؤرخين الفلسطينيين، اعتبرت النكبة عملية تطهير عرقي– إثني، والبعض عرفها كـ «محاولة إبادة جماعية (genocide)"، إلا أن معظم المؤرخين الإسرائيليين وصفوا النكبة على أنها "عمليات محلية محددة ذات طابع إجرامي، لا تختلف عن تلك التي تحدث في الحروب".

يقتبس أورون، في الفصل المذكور آنفًا، المؤرخ بيني موريس، محاولاً دحض الفرضية التي تعتبر النكبة عملية إبادة جماعية:

"علينا وضع الأمور في نصابها الحقيقي، يقول بني موريس، نحن نتحدث عن جرائم حرب قليلة مقارنة بعمليات الإبادة التي تمت في البوسنة أو ألمانيا أو ستالينغراد. إن أحصينا عدد الجرائم حتى العام ١٩٤٨، فالعدد لا يتعدى ٨٠٠ قتيل. عندما نأخذ بعين الاعتبار أن ما حدث هنا عام ١٩٤٨ كان حرباً دموية فقدنا من خلالها ١٪ من سكان البلاد، نرى أن سلوكنا كان جيدًا».

يمكن القول، إلى حد ما، إن الخط العام لكتاب "الكارثة، الولادة من جديد والنكبة" يدعم نظرية بيني موريس التي ترفض اعتبار النكبة عملية إبادة جماعية أو عرقية. وعلى غرار موريس، يطالب أورون في كتابه المجتمع الإسرائيلي بأكمله، سيما المؤمنين بالرواية الصهيونية، بالاعتراف بجرائم الحرب التي ارتكبت بحق الفلسطينيين. فعدد الجرائم، كما يقول الكاتب، ولو كان قليلاً مقارنة بجرائم وعمليات إبادة أخرى، لا يعطي الإسرائيليين شرعية إنكار ما حلّ بالشعب الفلسطيني العام ١٩٤٨.

كذلك يتناول أورون علاقة اليهود بالفلسطينيين قبل النكبة، وعلاقة اليهود الذين عاشوا في فلسطين التاريخية بالقادمين الجدد من اليهود، الذين تعرضوا لأهوال الكارثة. ثم ينتقل إلى وصف جرائم الحرب التي ارتكبت بحق الفلسطينيين. أعتقد أن معظم الجرائم التي قام أورون بكشفها في كتابه، مستندًا إلى وثائق وشهادات غير فلسطينية أو عربية، تم التطرق إليها في العديد من المصادر الفلسطينية وغير الفلسطينية. إلا أنه يشدد، وفي العديد من المواقع في الكتاب، على أن المصادر التي اعتمدها كانت إسرائيلية، وليست عربية أو فلسطينية، وذلك لعدم إلمامه ومعرفته باللغة العربية.

يتطرق أورون، أيضًا، إلى جرائم حرب عديدة منها؛ عمليات قتل وتهجير وتمثيل بالجثث وعمليات اغتصاب جماعية. كما يبحث في العديد من المذابح مثل مذبحة دير ياسين والطنطورة واللد، اغتصاب جماعي لفتاة بدوية بدنجور وقتل الأسرى في معركة عين زيتون. ثم ينتقل إلى وصف عمليات التهجير التي تمت بحق الفلسطينيين وهدم قراهم ومدنهم.

لا يسعى كتاب أورون إلى كشف وثائق جديدة، بل يستند إلى كتابات لمؤرخين إسرائيليين من أمثال إيلان بابه ويوآف جيلبير وبيني موريس. إن خاصية الكتاب تكمن في عملية الدمج والتشبيك للمصادر المعلوماتية المختلفة التي اعتمدها. فمقدرته على تشبيك المعلومات مكنته من التطرق بجرأة إلى أكثر المواضيع التي ينكرها المجتمع الإسرائيلي؛ النكبة. يوضّح أورون، في هذا السياق، أن «إنكار النكبة يعود بالأساس لعدم مقدرة الإسرائيليين على مواجهة الحقيقة التي تحوّل الضحية إلى جان. فصنّاع القرار والعملية التربوية والمؤرخون ومصممو الأسطورة الإسرائيلية عملوا على تثبيت هذا المفهوم في المجتمع الإسرائيلي بما يخدم المصلحة الوطنية. وإنكار النكبة يخلق أجيالا تحمل أوشفيتس في نفوسها وتحمل مفهوم الضحية بفكرها».

للكتاب مطمح واضح، وهو طرح قضية «الخوف من كشف الحقيقة»: «مم نخاف؟ ولماذا بالرغم من مرور ٦٥ عامًا على إقامة دولة إسرائيل ما زلنا نخشى الحقيقة، ما زلنا نكذب على أنفسنا وعلى أولادنا»، يقول أورون، ويقصد بذلك الإسرائيليين.

إن تغذية الخوف وسياسة التهويل المتداولة في المجتمع الإسرائيلي استمرت، كما يقول الكاتب، على مدار أجيال. هناك دومًا شخصية عربية أو إسلامية «تتناوب على تغذية هذا الخوف». فمن قبل، ظهرت شخصية جمال عبد الناصر وصدام حسين، ثم نصر الله وأحمدي نجاد. فلا عجب أن نشهد إخراج مصطلح النكبة من القاموس الإسرائيلي وسلخه عن نطاق القانون.

إن النظرية المركزية التي يعتمدها أورون في كتابه تفيد بأن

الكارثة كانت المسبب المركزي للنكبة. فيقول إن الكارثة أثبتت للشعب اليهودي بأن الصراع هو «صراع بقاء»، فإما أن ينتصر ويبني الدولة التي حلم بها منذ ألفي عام، وإما أن يندثر. أضف إلى ذلك، أن قدوم العديد من اليهود الأوروبيين إلى البلاد بعد مرورهم بالكارثة وفقدانهم لكل شيء، بما في ذلك عائلاتهم وأملاكهم، مكن من حدوث رد فعل سيكولوجي تعمّد إسقاط النقمة والغضب على الفلسطينيين، سيما وأن بعض الزعماء العرب والفلسطينيين، كما يقول أورون، أظهروا دعمهم للألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى تطوع بعض الجنود الألمان في صفوف الجيش العربي، حسب ادعائه. أدت هذه العوامل مجتمعة إلى إشعال فتيل «الانتقام من الفلسطينيين». كما أن العامل الاقتصادي لعب دورًا أساسًا ومهمًا في ذلك. فيقول الكاتب إن عمليات التهجير التي ارتكبت مكنت من إيواء المهاجرين اليهود الجدد في بيوت الفلسطينيين المهجَّرين. وبهذا، وفّرت حلا اقتصاديًا وأمنيا لدولة اليهود. في كتابه، يقوم أورون باقتباس العديد من الناجين من الكارثة، أولئك الذين انخرطوا في صفوف الجماعات اليهودية المسلحة: «علينا القضاء على العرب»، «علينا ذبح العرب»، «علينا الانتقام منهم»..

يستشهد أورون بالكاتب يورام كانيوك، الذي تفحّص من قبله قضية العلاقة بين الكارثة والنكبة. ففي كتابه، «تشاح– ١٩٤٨»، يقوم كانيوك بوصف دخوله لمدينتي الرملة واللد، اللتين بدتا آنذاك كمدينتي أشباح. يقول كانيوك: «إن مخلفات الفلسطينيين كانت دليلا دامغًا على الحياة التي عاشها سكان اللد والرملة قبل تهجيرهم». ثم يصف كيف توقفت بعد أيام شاحنة تحمل المئات من اليهود الذين تحدثوا العديد من اللغات، حيث هبطوا من الشاحنات بثيابهم الشتوية الرثّة؛ مرضى ومليئين بالمرارة والألم. ثم قاموا بالهجوم على بيوت الفلسطينيين الفارغة، ولم يسألوا عن هؤلاء الذين سكنوا هذه البيوت. ويقول كانيوك بأنه حين قام هو نفسه بسؤالهم عما إذا كانوا قد فكروا بمن سكن هذه البيوت من قبلهم، أجابوا: «إن كان هناك مكان سيلجأ إليه الفلسطينيون، فهم بوضع جيد. نحن عشنا نحو عشر سنوات وراء الأسلاك والجدران، ماذا تعرف أيها الصابرا (كنية تشير إلى اليهود المحليين) عن هول الكارثة؟»

يشدد أورون على أهمية الرواية الفلسطينية للشعب الفلسطيني، وارتباط مفهوم النكبة بالوعي الجمعيّ الفلسطيني. وعليه، فهناك مسؤولية يجب أن يتحملها الإسرائيليون تجاه ذلك، بالرغم عن عدم موافقتهم على المقارنة بين النكبة والكارثة على اعتبار أن لكل حدث خاصيته.

يذكر أورون، في تلخيص كتابه، أنه لا يرى أي مجال للمقارنة بين جرائم الحرب التي ارتكبت أثناء نكبة الشعب الفلسطيني وبين جرائم الكارثة. ولكنه يقول: «علينا نحن الإسرائيليين الاعتراف بالجرائم التي قام بها المقاتلون اليهود في النكبة. علينا تحمل المسؤولية تجاه ما ارتكبنا بحق الفلسطينيين. إن تحمل المسؤولية هو جزء من عملية البناء الذاتي لكل أمة تسعى إلى بناء ذاتها على أساس متين. علينا أن نتذكر دومًا أن الألمان النازيين هم من ارتكبوا الكارثة، فيما ارتكبت النكبة من قبل الإسرائيليين».

برأيي، يحاول الكاتب أن يقول: من دون الاعتراف المتبادل بالكارثة والنكبة لا يمكن أن نصل للمصالحة المرجوة بين الطرفين، فيكتب: «علينا إقامة الأطر التربوية لدى الطرفين بحيث يتعرف كل طرف على معاناة الآخر؛ هذه هي الطريقة المثلى لجسر الهوة والوصول لاتفاقات مبدئية».

يتناول أورون، في سياق حديثه عن وجوب تحمل الإسرائيليين المسؤولية تجاه الفلسطينيين، تجارب بعض الدول كالولايات المتحدة وأستراليا، أو حتى مطالبة إسبانيا من قبل إسرائيل بإدخال ذكرى طرد يهود إسبانيا في التقويم السنوي الاسباني.

الثيمة الذي يتناولها أورون ليس بالبديهية، بل تشكل لبّ القضية المركزية في الصراع الإسرائيلي– الفلسطيني، وكتابه، باعتقادي، يقدّم ادعاءً جريئًا نسبيًا في واقع المجتمع الإسرائيلي الذي تسوده أجواء العنصرية والكراهية، والذي يرى في نفسه ضحية المشهد السياسي الشرق أوسطي. ولكن لا شك في أن أورون، وبالرغم عن الصوت الجريء نسبيًا الذي قام بإسماعه، إلا أنه صوت يمكن سماعه ضمن ما يسمى بـ «حلقات اليسار الصهيوني». فبالرغم من مساعيه لطرح قضايا مركبة وشائكة في كتابه، إلا أنه، برأيي، لم ينجح في تجاوز الكتابة خارج هذه الحلقة.

أوافق أورون الرأي بأن بناء المجتمعات المتينة والمحصنة تتأسس من خلال التربية التي تمكن أفرادها من اكتساب المعرفة. فالاعتراف بالكارثة هو موقف إنساني يتصدى للظلم

والإنكار والجهل. ولا أرى أن اعترافًا كهذا قد يقلل من هول المأساة الفلسطينية. لا يمكنني أن أعترف بمعاناتي وأنكر معاناة الآخر. إن التيار العربي بعامة، والفلسطيني بخاصة، الذي يتبنى فكرة إنكار المحرقة ما هو إلا تيار هش مبني على ازدواجية القيم والمعايير. لا يمكنني أن أطالب الآخر بتحمل المسؤولية دون أن أتحمل بنفسي أدنى درجاتها؛ المعرفة. لا أرى الازدواجية في السياق السياسي فحسب، بل في السياق الجندري، أيضًا. فقضية اغتصاب النساء الفلسطينيات التي تطرق إليها أورون هي قضية شائكة؛ سيما وأن عمليات الاغتصاب التي جرت بحق النساء الفلسطينيات غُيِّبت عن رواية النكبة، فعلى ما يبدو أن قضية العرض كانت سابقه لقضية الأرض أيضا بحوار النكبة.

لعلّ الرواية الفلسطينية عملت، كالإسرائيلية في هذا السياق، على طمس الحقيقة. وكأنها أبدت خجلا وعدم مقدرة على الاعتراف بالواقع المؤلم. أما الهزيمة فكانت مزدوجة؛ متمثلة بفقدان العرض والأرض. وبما أن الروايات التاريخية تكتب دوما بقلم المنتصر، وغالبا ما يكون المنتصر رجلاً وليس امرأة، فلا عجب أن تندثر روايات الاغتصاب كرواية الشعب الفلسطيني.

عن الكاتب: يعمل البروفسور يائير أورون محاضرًا وباحثًا في قضايا عدة، أهمها قضية الإبادة الجماعية والتطهير العرقي والهويات في الجامعة المفتوحة في تل أبيب. صدر له أكثر من عشرين كتابًا؛ اثنا عشر منها تناول موضوع الإبادة الجماعية (genocide)، بالإضافة إلى عشرات المقالات الأكاديمية. ترجمت كتاباته إلى العديد من اللغات منها الإنكليزية والفرنسية والألمانية والأرمنية.